أثر النحو العربي في النحو العبري في الغرب الاسلامي

عبد العزيز شهبر

جامعة تطوان

لقد قدم العرب الاسلامي مثالا رائعا حول تعايش الثقافات الثلاث [1] وتلاقحها وتأثيرها في بعضها البعض حسب درجة هيمنتها وغلبتها، وصارت مدارس قرطبة وغرناطة وأشبيلية، وقبلها جميعا، مدارس سلماسة وسنة مراكز تهوى اليها أفئدة طلبة العلوم من كل الافاق. وضمت تلك المدارس أفواجا من اليهود المتعايشين مع المجتمع الاسلامي، وأقبلوا على تعلم العربية وعلومها، وانفتحوا على الثقافة العربية-الاسلامية حتى وجدنا أغلبهم يؤلف بالعربية ويناظر بها. وكان مدار اهتمامهم إحياء اللغة العبرانية - التي اعتبروها مقدسة - وبعثها وتلقيحها بمصطلحات عربية لتساير ظروف ومقتضيات المجتمع الجديد. وتوسعت هذه الحركة الاحيائية في القرن العاشر [2] حيث أيقظت الدراسات اللغوية والنحوية العربية همم لغويي العبرانية، فأفادوا منها في دراسة التوراة، وأعدوا معاجم غريبها وأحصوا الدخيل فيها، ولم يغفلوا جهود يهود المشرق وشمال افريقيا، الا أن تلك الدراسات لم تحاول تحديث العبرانية لتستعمل أداة تواصل يومي بل اهتمت برصد أوجه الفصاحة في عربية التوراة، فكانت وصفية في أغلب الاحيان عملت على تبيان المراتب النحوية ومعاني المعجم التوراتي واحصاء الدخيل فيه.

وتجدر الاشارة الى أنه كانت هناك بعض الاصوات أحست بنوع من النداء الالهي يدفعها الى تخليص العبرانيين وتنبيههم من مغبة فقدان هويتهم اللغوية، وحرص على أن تجري اللغة المقدسة على لسانهم. [3]

ومن أوجه التأثير العربي في كتابات نحاة العبرانية في الغرب الاسلامي، أن أغلب مؤلفاتهم كانت بالعربية، واستعملت المصطلح النحوي العربي، واتبعت مناهج علماء العربية، ونفس التأثير بدا فيما ألفوه بالعبرانية.

ففي القرن الثالث الهجري، ألف يهودا بن قريش التاهرتي معجما دعا فيه الى ضرورة تجريد الالفاظ من الزوائد وضبط أصولها، وهو يرى أن هذه الاصول ترتكز على حرفين اثنين هما أصل المادة، وهذا مذهب القائلين بالثنائية في اللغويات العربية، وهو مذهب معاصر لمذهب سيبويه وأنصاره من القائلين بالثلاثية. كما ألف ابن قريش رسالة الى

THE ARABIST. BUDAPEST STUDIES IN ARABIC 3–4 (1991)
https://doi.org/10.58513/ARABIST.1991.3-4.10

يهود فاس في الحض على تعليم الترحوم والترغيب فيه والتعبيط بفوائده ودم الرفض به [4]. وقد أشار ابن قريش في رسالته المذكورة الى مسائل مهمة ما كان ليقف عليها لولا معرفته بالعربية والبربرية والارامية. لقد حاول ابن قريش تأويل التشابه بين اللغات المذكورة فاهتدي الى ما يلي :

1) – المقاربة في النسب تؤدي الى تشابه اللغات[5] فتارح (آزر) أبو ابراهيم كان آراميا ،ولابأس آراميا ايضا ،واسماعيل وقيدار كانا مستعربين منذ زمان البلبلة في بابل ،واسحاق ويعقوب عليهما السلام كانا متمسكين باللسان المقدس من آدم الاول ،ولعله من خلال هذا أراد طرح مسألة العائلات اللغوية (العائلة السامية على الخصوص) لكنه تعدى اللغات السامية التي ينقلها الى لغة أخرى حامية [6]، يتعلق الامر هنا باللغة البربرية. وهذا التشابه بين العربية والارامية والعبرانية والبربرية، يمكن ان يكون استند فيه الى ما يعتقده اليهود المغاربة من كون البربر هاجروا الى المغرب قادمين من فلسطين زمن الملك داوود [7] وهو أمر كاف بالنسبة له لبقرر التشابه بين تلك اللغات الشرقية التي يدرسها ،والبربرية بحكم المقاربة في النسب أولا ثم بسبب المجاورة في البلاد ثانيا.

2) – المجاورة في البلاد سبب من أسباب التشابه بين اللغات كذلك،وهو يرى أن جميع اللسان المقدس الحاصل في " المقرا " قد انتشرت فيه ألفاظ سريانية (آرامية) واختلطت به لغة عربية وتشددت فيه أحرف أعجمية وبربرية ،والاختلاف الذي يلاحظه بين العبرانية والعربية بسيط "لايكاد يتعدى ابتدال الصاد والضاد والحيمل والجيم والطيت واللطاء والعين والغين والحاء والخاء.". يقول:" وانما كانت العلة في هذا التشابه والسبب في هذا الامتزاج قرب المجاورة في البلاد والمقاربة في النسب..... فتشابهت اللغة من قبل الممارجة كما نشاهد في كل بلد مجاور لبلد مخالف للغته من امتزاج بعض الالفاظ بينهم ،واستعارة اللسان من بعض."

والظاهر من قوله أنه اعتمد المقارنة والقياس بين اللغات التي قدمها في رسالته الى يهود فاس ،كما اعتمد نفس المنهج في التمييز بينها وبين لغات سائر الامم ،ولعل في هذا تصريحا بمسألة العائلات اللغوية، يقول :" ونشرح الحروف التي تساوت بين العبرانية والارامية والعربية في أوائل الكلام وأواسطه وأواخره [8]،وليس ذلك بموجود في لغة من سائر لغات الامم سوى في لسان العبرانية والسريانية والعربية."

والاثر العربي في رسالة ابن قريش يتمثل فيما يلي :

1) – المصطلح الذي استعمله ابن قريش عربي بالمرة ،فهو يستعمل مصطلح الابدال والعلة والقياس ويستعمل لفظة " قالب" للدلالة على وزن الكلمة، كما نظر الى الكلمات من حيث أوائل الحروف والاواسط والاواخر،وهو

عين ماتجده عند نحاة العربية قبله ،وبالاضافة الى هذا كله نجده أورد الكلمات على نظام أبجد ،وهو ترتيب استعملته المعاجم العربية الاولى .

2) ـ ألف ابن قريش كتابه بالعربية وأرسله الى يهود مدينة فاس وكان ذلك في القرن الثالث الهجري أي على عهد الادارسة . وهذا دلالة واضحة على أنه في هذا القرن كانت اللغة العربية قد انتشرت بالمغرب بشكل واسع ،الى درجة أن التعريب عمّ فيها الطائفة اليهودية التي كانت تتحدث البربرية والعبرانية ،وفي هذا دفع لما يقرره البعض من تعثر التعريب في المغرب الى عهد المرينيين .

ولا ينبغي أن ننسى في هذا الصدد داوود بن ابراهيم الفاسي مؤلف معجم الالفاظ ،وقد عاصر سعديا بن يوسف الفيومي مؤلف "إجارون" في النحو. وقد استعمل داوود بن ابراهيم الفاسي المصطلح النحوي العربي وذكر أن الالفاظ العبرانية ترتكز على أحرف هي أساس الالفاظ. وأن هناك من الالفاظ ما يدور على حرفين ثابتان ولو جردتهما من اللواحق،ومنها ما يدور على حرف يثبت وان نزعت عنه اللواحق. ومنها ما يدور على ثلاثة حروف هي الاصل وما يدور أربعة اصلية بكاملها او مكررة ،يقول :"ولايزيد على اللغة العبرانية من هذه الاربعة ،وعليها يبني منطقهم من الامر والنهي والاتف والمستأنف والفاعل والمفعول والاسم والمصدر والتذكير والتأنيث ما خلا أسماء الاشخاص ،التي غير متصرفة فانها تزيد على أربعة أحرف."

والاثر العربي في كتاب جامع الالفاظ يتمثل بالخصوص في المصطلح العربي الذي استعمله ابن ابراهيم الفاسي .

ومن النحاة العبرانيين المؤلفين بالعربية في الغرب الاسلامي نذكر أبا زكرياء يهودا بن داوود حيوج الفاسي مؤلف كتاب" التنقيط" (9) وقد بين فيه أصول توزيع الحركات والسكون على الالفاظ العبرية ،وأشار الى غلبة الرأي القائل باشتقاق الالفاظ من الاصول الثلاثية. وكان من أكثر نحاة العبرانية في الاندلس تعصّبا لمدرسة سيبويه في النحو ،ومذهبه في القياس. وألف أبو زكرياء كتاب "الافعال ذوات المثلين" و "الافعال ذوات حروف اللين "ردا على الذين أنكروا عليه امكانية اشتقاق الالفاظ من حرفين. والمصطلح المستعمل في كتابات حيوج النحوية عربي بمجمله .

ولا ينبغي ان ننسى هنا أبا الوليد مروان بن جناح القرطبي ،وفي عصره توطد تأثير مدرسة البصرة في الاندلس ،وصار كتاب سيبويه أساس الدرس النحوي فيها ،ولادل على ذلك كثرة الشروح الاندلسية التي قدّمت له .. والسر في اتباع نحاة العبرانية في الاندلس مذهب البصرة كونهم كانوا ينطلقون في دراستهم من النص المكتوب،ويستعملون القياس ،ولا مجال للسماع عندهم

لان لغتهم في تلك الفترة كانت مبتة او في حكم المبتة [10]. والامر عندهم كان يتعلق بعملية تعبدية احيائية تنطلق من مدونة محددة : التوراة والتلمود وكتابات السلف ومذهب الكوفة كان يقوم بالاساس على السماع.

وقد ألف ابن جناح كتاب "اللمع" وهو جزء من كتاب "التنقيح" أعلن فيه عمله بمذهب القياس ،كما أعلن انه من أهل القياس أتباع سيبويه[11] وكان غالبا ما يحيل عليه بالاسم ،كما فعل حينما تحدث عن الايجاز والحذف يقول : "ان العرب اذا تكررت لفظة على لسانهم لجأوا الى تخفيفها ، كأن يقولوا: "المنا" ويريدون"المنايا"،ثم يقول : " وقد يحذفون أكثر من هذا ،حتى أنهم يستجزئون من الكلمة بذكر اول شبهة منها ،حكى ذلك سيبويهم"،وانشد لبعضهم :

بالخير خيرات وان شرا أتا

ولا أريد الشر الا ان تا

أراد: وان شرا فشرا ،فاستجزأوا بالفاء فقط ،وأراد بقوله الا أن تا: الا أن تريد فاستجزيء بالتاء فقط . [12]

وقد حلبت عليه اشاراته الصريحة الى المصادر والشواهد النحوية العربية ، مشاكل عديدة ،تمثلت في تكبير الكثير من اليهود عليه ،ومؤاخذتهم له ، ولهذا كتب"كتاب التنبيه" الى احد اصدقائه يشرح فيه فساد ما انكره عليه أعداؤه يقول :" واعلمك ان هؤلاء السخفاء لقبوا كتابهم بكتاب الاستيفاء، وعزوه الى بعض الاغمار خوفا منهم ان يتسع الرد عليهم فيه ،وتكثر السخرية منهم عليه لعلمهم أيضا أني لا محالة سائقهم :

لسبق الجواد اذا * استولى على الامد

أعادك الله ،وأساك من الاراء المضللة والاهوية المردية بمنه ورحمته [13] "

وفي"كتاب الاصول" قدم ابن جناح معجما عبريا على ترتيب ابجد ،أفاد فيه من مناهج التأليف المعجمي العربي من حيث ترتيب المواد ،وتقديم الاصول على الفروع والاشتقاقات .

لكن الصراع حول طرق توظيف علوم العربية وحدود ذلك التوظيف في احياء اللغة العبرانية ،سيبلغ اشده عند لغويين اثنين وتلامذتهما من بعدهما . ويتعلق الامر هنا بمناحيم بن سروق (910 – 970م) مؤلف"المخبرت"بالعبرانية[14] ودوناش بن لبراط الفاسي (920– 990م)مؤلف"كتاب التشوبوت"بالعبرانية كذلك [15]! وانتقل الصراع الى تلامذتهما ،فألف أنصار ابن سروق كتابا في الرد على دوناش[16] ورد أنصار هذا الاخير على الاول وأنصاره .

وقد اشار أساتذتنا أجيل سابنس بديوس ، الى ان دوناش ومناحيم وانصارهما استفادوا من علوم عصرهم التي تلقوها من المشارقة والشمال افريقيين،ولم تكن الفيلولوجيا (علم اللغة) غاية لذاتها عندهم فقد ايقظت جهود

نحاة العربية هم العلماء اليهود واقنعتهم بضرورة توسيع الدراسات الى اللغة المقدسة (17). فمناحيم يرى أن دراسة النحو وضبط معجم اللغة هو طريق الى تحسين معرفة التوراة من اجل التوفّق في شرحها ،وتأويل الغامض منها. وحاول مناحيم حصر معاني كل لفظة توراتية مشيرا الى معناها المباشر أوما اسماه "البشط" ،فجاء معجمه معجما تأويليا واطلق عليه طلبته تسمية "كتاب التأويلات". (18)

ودراسة اللغة سبيل الى فهم النص المقدس عند مناحيم ، عكس دونياش بن لبراط الذي يرى أن المعرفة النحوية واللغوية ،لايمكن ان تكون كافية لفهم النص ما لم تكن مشفوعة بمعرفة واسعة بالامور الدينية نظريا وعمليا ، والتأويل عنده ينبغي ان لا يكون مخالفا للشريعة . (19)

والخلاصة ان كتب مناحيم ودوناش وانصارهما ،كانت تغلب القياس على السماع على مذهب سيبويه رغم كونهم يختلفون في حدود وطرق استخدامه في التفسير، والمصطلح المستعمل عندهم عبراني مترجم عن العربية والاشارة الى الالفاظ العربية في كتبهم كثيرة الورود.

وقد تتبعت كتب نحاة الاندلس من العبرانيين بعد القرن العاشر فوجدت أن التأثير بقي فيها سائر المفعول من حيث وصف أقسام الكلام ،واستعمال المصطلح العربي مترجما الى العبرانية من مثل: שֵׁם הַמִּסְפָּר اسم العدد שֵׁם הַפֹּעַל اسم الفاعل שֵׁם הַיחס المنسوب . وكاستخراج أوزان الفعل من مادة فعل: פֹּעַל وحافظت مؤلفات العبرانيين النحوية بعد القرن العاشر على الترتيب الذي نجده في مؤلفات النحو العربي ،من مثل : البدء بالحديث عن الكلم ،وتقسيم الكلام الى اسم وفعل وحرف،ثم تفصيل القول في كل قسم من تلك الاقسام.

ولما كان القصد من دراسة اللغة عندهم دينيّ من اجل حفظ النص المقدس من اللحن ،فقد وجدناهم يفضلون الاكثار من الشواهد التوراتية.

والترم نحاة ما بعد القرن العاشر من العبرانيين بمذهب القياس لانطلاقهم من مدونة محددة. وسوف نجدهم في القرن الثاني عشر يناقشون نظرية العامل وحدود دلالة الاسم والفعل على المادة والاحداث .. ومن الذين نحوا هذا المنحى موسى بن يوسف الكمخي في الـ "سكل طوف" (الفهم الجيد) (20) ولم ينحصر هذا التأثير العربي في كتب النحو العبراني الخالصة ،بل تعداها الى كتب النوازل الفقهية والشروح التوراتية ،وقد وقفت من خلال كتب النوازل المغربية على مواضع كثيرة كان أحبار المغرب يخصونها لتحليل الكلام المقدس ،تحليلا ارتكز على قواعد النحو العبري والعربي ومناهج المفسرين المسلمين .

الهوامـــــش

1) – أعني الثقافة المسحية والعربية الاسلامية واليهودية .

2) – انظر : أنجيل سانس بدبوس Angel Saenz Badillos: *Historia de la lengua hebrea* منشورات أوسا ,ساديل 1988 ص 232–234 وانظر لنفس "La filologia hispano-hebrea del siglo X como Exégesis" المؤلف في *M.E.A.H.* عدد XXXVI، 1987 جامعة غرناطة ص 7–28

3) – انظر : انجيل بدبوس ، "El ʿAnaq poema lingüistico de Šelomo ibn Gabirol" ; *M.E.A.H.* عدد XXIX, 2 ص 5 – 29 وخالكين: Halkin, A.S.:

"The Medieval Jewish Attitude towards Hebrew". In: Altman, A. (ed.): *Biblical and Other Studies.* Cambridge/Mass. 1963. وانظر ايضا : 248 –233ص

Allony, N. "The Reaction of Moses ibn Ezra to 'Arabiyya'"; *BIJS*, 1975 3.19-40.

4) – نشرها جولدنبرغ وبرجبه سنة 1885 ونشرت نشرة مزدوجة بالعربية – اليهودية والترجمة العبرانية في القدس في الثمانينيات من طرف الباحث بدين . واعمل الان على دراستها ونشرها بالعربية في اطار سلسلة التراث اللغوي المغربي .

5) – انظر نفس المسألة عند الباحثين المحدثين في اللغات السامية ,بدبوس 1988 ص 14 .

6) – بخصوص العلاقة بين اللغات الحامية والسامية انظر البيليوغرافيا التي اوردها Cohen, Marcel. 1947. *Essai comparatif sur le vocabulaire et la phonétique de chamito-sémitique.* Paris.

7) – انظر لا ريدو: العبرانيون والبربر في المغرب ,نشرة من نشرات المجلس الاعلى للبحث العلمي ,مدريد ,وانظر : اصل البربر في تاريخ ابن خلدون.

8) – بخصوص الاصول الثلاثية في العبرانية واللغات السامية الاخرى انظر : Kuryłowicz, Jan. 1973. *Studies in Semitic Grammar and Metrics.* Kraków.

9) – طبع في سنة 1884 .

10) – حول استمرار العبرانية في الاستعمال الى المرحلة الاندلسية انظر بدبوس 1988 ،ص 201 – 209 .

11) – انظر رسالة التنبيه في : *Le livre de Parterre fleuris.*

Grammaire hebraique en arabe d'Aboul Walid Marwan ibn Ganaḥ. Paris, 1880. نشره درنبورغ .

12) – اللمع نشر درنبورغ ،ص 261 .

13) – نفسه ص 266 – 267 .

14) – المختصر لمناحم بن سروق . حققه وترجمه الى الاسبانية اساتذتنا انجيل سديوس – غرناطة 1986.

15) – التشبوت لدوناش بن لبراط . حققه وترجمه الى الاسبانية اساتذتنا انجيل سديوس – غرناطة 1980.

16) – *Tešubot de los discipulos de Menahem contra Dunāš ben Labrat.* بدأت نشره سانتياجا بينافيت روسليس قبل وفاتها واتممه وراجعه د. انجيل سديوس ،غرناطة 1986.

17) – انظر:
سديوس : الندوة التوراتية الاسبانية ،مدريد 1984 ص 697.

18) – ردود تلامذة مناحيم ضد دوناش ،ص 11– 13.

19) – "La filologia hispano-hebrea del siglo X como Exégesis". *M.E.A.H.* 1987 36.7-28.

20) – نشره D. Castelli في *R.E.J.* عدد XXXVIII ،ص 212.
وانظر ما كتبه Bacher حول هذا الكتاب في R.E.J. – XX. واشير الى انه ترجم الى الاسبانية وعلق عليه وقدم اطروحة دكتوراة بجامعة مدريد في بداية القرن .